من دروس الإسراء والمعراج؛

جبر الخاطر

الحمد لله الذى أرسل نبيه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، رحمة للعالمين بشيرا ونذيرا، وأنزل الكتاب على عبده تبيانا لكل شيء، وجعل أمته خير الأمم وأشهدها على باقي الأمم، رفع ذكره ووضع عنه وزه، وجعله خير خلقه، ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير ولا ند له ولا شريك له ولا وزير ولا عون ولا ظهير الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، رحماك يا رب العباد رجائي ... ورضاك قصدى فاستجب لدعائي

وحماك أبغي يا إلهى راجياً ... منك الرضا فجُدْ بوَلائي

ناديتُ باسمك يا إلهى ضارعا ... إن لم تجرني فمن يجيب بكائي

وبعد فإن الله قد شرف نبيه وعبده وشرف قدره ورفع ذكره، بمعجزة باهرة، تعد مرحلة فاصلة في مراحل تكوين تلك الأمة المحمدية، بعد حزن وفقد للأحبة، وكأن الله يرسل برسالة طمأنه لحبيبة لا تخف نحن معك، ولا نضيعك، ومن كان الله معه فمن عليه؟! وحديثنا عن معجزة الإسراء والمعراج، الذى أفرد لها القرآن

سورة عرفت بها، يقول في مطلعها ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾

وقفات مع لفظ سبحان

كلمة أعجمية معربة، منها سبح يسبح سبح ووردت بكل مشتقاتها في كتاب الله وتعني التنزيه والتقديس لذاته سبحانه، فتأتي مرة بلفظ الماضي على أن التسبيح والتنزيه حدث له في الماضي ومستقر له سبحانه، وتأتي بلفظ المضارعة لتعني الاستمرارية وأن كل من في السموات والأرض يسبح بحمده حتى قيام الساعة، وتأتي بصيغة الأمر للتذكير والتنبيه على عظم وقدر ورفعة تلك العبادة العظيمة

ورد لفظ سبحان في كتاب الله في أكثر من أربعين موضعا، منها في موطن تنزيه الملائكة لجلاله وكماله سبحانه فقالوا: لما سألهم عن الأسماء التي علمها لأدم أنبئوني فقالوا من فورهم، (قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) ، وجاءت في مقام المنزهين له عن الولد والصاحبة، لما قال عنه نفسه جل جلاله: وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ... وفي مقام العارفين الذاكرين المتدبرين، الناظرين في تعاقب الليل والنهار والشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار، فيقولون عندئذ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ.

ومعني سبحان تنزه عن كل نقص، ومعناه أسبحه تسبيحا وتنزيها يليق بكماله وجلاله وقدره، وقد بدأ بها الحق سبحانه لمناسبتها لمقام المخاطبين، فهو يعلم ما في انفسهم وما سيقولون، وتلوك به ألسنتهم فقطع دابرهم، وقال سبحانه تنزه أن يكون ما فعله من قبيل المستغرب، أو ما قاله نبيه على سبيل الكذب، بل قال في مطلع سورة النجم، ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١﴾

لطائف في الاستفتاح

تنزيه الحق سبحانه عن الزمان والمكان، فهو يزيل اللبس عن فهم البعض أن النبي صلى الله عليه وسلم ذهب لمكان فيه رب العالمين، فتنزه سبحانه عن المكان، كما بين سبحانه أنه أسرى بعبده ليس ليراه ويقرب منه بالمكان وإنما قال سبحانه * (لنريه من آياتنا) * وآياته تعالى أي مخلوقاته وعجائب مصنوعاته، وليس ليذهب إلى مكان فيه رب العزة سبحانه المنزه عن الزمان والمكان!! فإن قيل: وكيف كلمه ورآه وفرض عليه الصلوات الخمس ألا يدل ذلك على أنه ذهب إليه أي إلى مكان هو فيه؟!! قلنا: ليس كذلك!! فإنه سبحانه كما كلم سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم فوق السماء عند سدرة المنتهى فقد كلم سيدنا موسى عليه السلام في الوادي المقدس طوى بجانب الطور وذلك في أرض فلسطين ولا يعني ذلك أن الله سبحانه كان هناك، فكما أنه سبحانه منزه عن المكان لما خاطب سيدنا موسى بجانب الطور فهو أيضا منزه عن المكان لما خاطب سيدنا محمدا

صلى الله عليه وسلم في السماء، والسماء والأرض والأكوان والعوالم مخلوقة لله تعالى وهو منزه عن الحلول بها.

ومعنى التسبيح أي نزهه عن المكان والزمان والشبه والحلول والجهات فسبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ونزه نبيه عن الكذب والدجل والشعر، فتلك الرحلة خارج حدود الزمان والمكان.

وانظر بعين قلبك، فقد حفت السورة كلها بالتسبيح والتحميد قبلها وبعدها، ولعلّ في هذا إشارة إلى أنه - صلى الله عليه وسلم - سينُقل إلى مكان وعالَم كله تسبيح: سورتي النحل (أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) وسورة الكهف (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا) ، وآياتها حُفّت بالتسبيح والتحميد في بدايتها بالآية 1 وفي آخرها (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا) آية 111 - وقد سُبقت السورة بالمعيّة في أواخر سورة النحل (إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ) آية 128 ومن أعلى أنواع المعيّة أن يُعرج به - صلى الله عليه وسلم - إلى حيث من يُحبه بعدما لاقى من الأذى ما لاقاه من قومه وهذه أعلى معيّة للرسول - صلى الله عليه وسلم - وكأنه هو أعلى من الذين اتقوا والذين هم محسنون

الإسراء كان جبرا لخاطر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

أسرى بعبده: بعبده: لم يقل برسوله ولا بمحمد وإنما قال بعبده. الاختيار لكلمة (بعبده) له جملة معاني أولها: أن الإنسان مهما عظُم لا يعدو أن يكون عبداً لله تعالى لا ينبغي لأحد أن يدّعي مقاماً ليس للآخرين وحتى لا يُعظّم أكثر مما ينبغي فاختيار كلمة عبد حتى لا يُدعى له مقام غير مقام العبودية . فمقام العبودية لله هو أعلى مقام للخلق وأعلى وسام يُنعم الله تعالى به على عباده الصالحين تماماً كما وصفت الآيات نوح - عليه السلام - (إنه كان عبداً شكورا) وأيوب (نعم العبد إنه أوّاب) والرسول - صلى الله عليه وسلم - (وإنه لمّا قام عبد الله يدعوه) . والعبودية نوعان: قسرية واختيارية ، فالعبودية القسرية تتحقق شاء أم أبى (إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا) سورة مريم أما العبودية الاختيارية فهي أعلى مقام العبودية ولمّا ذُكر موسى - عليه السلام - ذكره الله تعالى باسمه وأعلى مقام لموسى كان في المناجاة (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه) إلى قوله (خرّ موسى صعقا) لم يكن ليقل خرّ عبدنا موسى أو جاء عبدنا موسى فلا يجوز أن ينسب العبودية له ثم يخرّ صعقاً هذا لا يحدث ولا يجوز أصلاً، أما الرسول - صلى الله عليه وسلم - عندما ذكر بصورة العبودية أعقبها أنه عُرِج به إلى السماء وإلى سدرة المنتهى وخاطبه ربه بمقام لم يصل إليه أحد إلاّ هو - صلى الله عليه وسلم - فلذا كان استعمال كلمة (بعبده) دلالة على زيادة التشريف له -

صلى الله عليه وسلم - والباء أيضاً إضافة تشريف وهي تدلّ على الرعاية والحفظ مثل قوله تعالى (فأوحى إلى عبده) .

صور من جبر الخاطر في حياة النبي صلى الله عليه وسلم

لقد كانت رحلة الإسراء والمعراج في جوهرها أعظم رحلة "جبر خاطر" في التاريخ الإلهي للنبي ﷺ، وجاءت لتطيب – صلى الله عليه وسلم- قلبه بعد سلسلة من المحن القاسية وكانت رسالة شديدة الوضوح أنه إذا ضاقت بك الأرض فإن الملكوت والسدرة والسموات تتسع لك ولرسالتك ولأمتك !

لقد جبر الله خاطره في أن جعله إماما للأنبياء في بيت المقدس، وفي الكتاب المحفوظ أنه سيد الخلق وسيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم

لقد جبر الله خاطره في وصوله إلى سدرة المنتهى إلى مكان لم يصل إليه ملك مقرب ولا نبي مرسل!

ثم ختمها سبحانه بفرض الصلاة كأعظم هدية وقربة ومنحة ربانية لامته صلى الله عليه وسلم لذا قال "وجُعلت قُرَّةُ عيني في الصلاة"

ثم انعكس هذا على سلوكه صلى الله عليه وسلم، فكان جبر خاطر الخالق له، له أعظم الأثر في حياته صلى الله عليه وسلم، فكان خير معلم لتلك العبادة العظيمة وقد لمسناها فيما يلي:

1-وفي حديث جامع شامل يقول الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم حَقُّ المُسْلِمِ علَى المُسْلِمِ خَمْسٌ. وفي رواية: خَمْسٌ تَجِبُ لِلْمُسْلِمِ علَى أخِيهِ: رَدُّ السَّلامِ، وتَشْمِيتُ العاطِسِ، وإجابَةُ الدَّعْوَةِ، وعِيادَةُ المَرِيضِ، واتِّباعُ الجَنائِزِ (الشيخان) وها هو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يضرب أروع الأمثلة في المواساة وجبر الخاطر، عندما لقي جابر بن عبد الله وقال يا جابر مالي أراك حزينا، يا جابرُ ما لي أراكَ منكسِرًا ؟ قلتُ : يا رسولَ اللَّهِ استُشْهِدَ أبي قُتِلَ يومَ أُحُدٍ ، وترَكَ عيالًا ودَينًا ، قالَ : (أفلَا أبشِّرُكَ بما لقيَ اللَّهُ بِهِ أباكَ ؟) قلتُ : بلَى يا رسولَ اللَّهِ قالَ : ما كلَّمَ اللَّهُ أحدًا قطُّ إلَّا من وراءِ حجابِه وأحيى أباكَ فَكَلَّمَهُ كِفاحًا فقالَ : يا عَبدي تَمنَّ عليَّ أُعْطِكَ قالَ : يا ربِّ تُحييني فأقتلَ فيكَ ثانيةً قالَ الرَّبُّ تبارك وتعالَى : إنَّهُ قد سبقَ منِّي أنَّهم إليها لَا يُرجَعونَ قالَ : وأُنْزِلَت هذِهِ الآيةُ : (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا) الآيةَ (الترمذي سند صحيح) ولم يتوقف الحد عند مجرد الكلمات بل كانت بركة رسول الله صلى الله عليه وسلم معه حين كال للغرماء ووفى وتبقي له ببركة دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم

2- إطعام الطعام من أعظم وسائل جبر الخاطر.

يقول النبي المكرم صلى الله عليه وسلم «أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً ، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا ، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلَئِنْ أَمْشِي مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ

مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ شَهْرًا فِي مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ ، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ؛ مَلَأَ اللَّهُ قَلْبَهُ رَجَاءً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى يُثَبِّتَهَا لَهُ ثَبَّتَ اللَّهُ قَدَمَهُ يَوْمَ تَزُولُ الْأَقْدَامُ (الطبراني)

وأخير فإن صور جبر الخاطر كثيرة، الكلمة الطيبة، تبسمك في وجه أخيك، المسح على رأس اليتيم، احترام الناس مهما كانت ظروفهم وطبقاتهم، والنظر إليهم بنظرة الإنسانية لا بنظر الدونية، كلها من مظاهر جبر الخاطر التي علمنا إياها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتي استلهمها من رحلة الإسراء والمعراج، تلك المنحة الربانية العظيمة، التي كانت خير دليل على أن الله مع نبيه، وأنه سيعطيه حتى يرضى، وأن الذي أرخى سدول الليل وسجاه، ما ودع حبيبه وما قلاه!

وأنه معه ناصره ومؤيده وناصر من ينصر سنته ويتبع هديه، ويسير على دربه.

لذا ونحن نتذكر حادث الإسراء والمعراج ونتحدث عن جبر الخواطر الخص مظاهر تلك العبادة فيما يلي:

1- جبر الخاطر أولى الناس به أبويك ورحمك!

2- جبر الخاطر أولى الناس به جيرانك وأهلك

3- جبر الخاطر أولى به تلاميذك إن كنت معلما ومرضاك إن كنت طبيبا

4- جبر الخاطر في إطعام الطعام وإفشاء السلام وفي المحبة

5- جبر الخاطر في الشفقة على العجائز والأرامل والمساكين

6- جبر الخاطر في قضاء حوائج الناس وتيسير أمورهم

7- جبر الخاطر في الرحمة والشفقة على عموم الناس إن كنت في موضع مسئولية بما لا يخالف الشرع ولا العرف ولا القانون

8- جبر الخاطر في الرحمة بالزوجة والولد

وأعلموا أنه من لا يرحم لا يرحم ومن لا يغفر لا يغفر له

كتبه الفقير إلى عفو مولاه الدكتور محمد سالم الصعيدي الشافعي الأزهري- الأستاذ المشارك بالأزهر الأنور- نسألكم الدعاء له بالتيسير ولأبيه بالرحمة والمغفرة ولولده بالصلاح والفلاح